

رُومَانُ رُولَان

قبل اشتعال الحرب العالمية الثانية كان رومان رولان يطلع علينا بين وقت وآخر من أعماق عزلته في بسويسرا بعيداً عن وطنه فرنسا بكتاب أو مقال جديد فيشعر من قرأ هذا الأديب العظيم بخير زائد إلى قراءة هذا الكتاب أو هذا المقال . ذلك أن رومان رولان كاتب عالمي الفكر والعاطفة لا يكتب لأمة معينة ولا لشعب خاص بل يكتب للعالم أجمع ناظراً إليه كأُسرة إنسانية واحدة لا تمنقها حدود ، ولا تفرقها لهجات ، ولا تبذر بذور الحقد والضغينة في قلوب أعضائها فكرة الأجناس . لذا كان رومان رولان من أحب الكتاب المعاصرين إلى كل قلب رحيم ونفس راجحة الآفاق . وكتابه الشهير عن (المهاتما غاندي) يقربه إلى قلوبنا نحن الشرقيين لأنه وقف فيه موقف المدافع القوي عن الحركة الهندية وشعبها المجيد المهضوم ، كاشفاً القناع عن فضائح الغرب وإثامه في قتل أمة عظيمة بلغت مئات الملايين والوقوف في وجهها بالالتجاء إلى البطش الخسيس حين تنهض مطالبة بحقوقها في الحياة .

ولا عجب أن يبدو ذلك من رجل مثل رومان رولان لم تكن.

تعلن الحرب العالمية الأولى — وكان وقتذاك في جنيف بسويسرا —
حتى أخذ يكتب سلسلة مقالات ملتهبة بالعاطفة الإنسانية ، مطالباً
فيها بالمبادرة بحقن الدماء وعودة السلام وإنقاذ أرواح الشباب
البريء الذي يلعب بعقله محترفو السياسة مستغلين حرارة قلبه
وسمو نفسه في سبيل جشع أصحاب مصانع السلاح ودجل رجال
الحكومات من صنائع التوسع الاستعماري . ولقد أثر رومان
رولان عدااء الرجعيين من أبناء وطنه والصحافة المسادية المغرضة
التي أثارت عليه الرأي العام على أن يتنازل عن حريره في الفكر
والقول ، عن إنسانيته التي هي ثروته الكبرى .

ولد رومان رولان في بلدة كلاميس Clamecy في اليوم التاسع
والعشرين من شهر يناير سنة ١٨٦٦ من أسرة ريفية بورجوازية
عريقة القدم ، وتعلم أولاً في البلدة التي ولد بها . ثم انتقل إلى باريس
عام ١٨٨٦ حيث التحق بمدرسة النورمال العليا ، وفي عام ١٨٨٩ نجح
في امتحان الأجرسيون في التاريخ والفلسفة ، وفي عام ١٨٩٥ حصل
على شهادة الدكتوراه في الآداب برسالة قدمها عن (أصول المسرح
الغنائي الحديث) Les origines du théâtre lyrique moderne
وعين بعد ذلك أستاذاً لتاريخ الفن في مدرسة النورمال العليا ،
ثم عين أستاذاً في السوربون حيث أدخل مادة (تاريخ الموسيقى)
وبقي فيها حتى عام ١٩١١ .

ابتدأ رومان رولان حياته الأدبية بكتابة عدد كبير من القصص المسرحية ، ولم يكن ذلك منه عفواً بل كان تنفيذاً لفكرة مختصرة في نفسه عن وجوب تجديد الفن المسرحي بالطريقة التي شرحها في سلسلة مقالاته التي كتبها بعنوان (مسرح الشعب) Théâtre du peuple (١٩٠٠) .

كتب رومان رولان من هذه القصص المسرحية Saint Louis — (١٨٩٧) — Aërt (١٨٩٨) — Les loups (١٨٩٨) —
— (١٨٩٩) Le triomphe de la raison — Danton (١٩٠٠) —
(١٩٠٢) Le 14 juillet — (١٩٠٢) Le temps viendra ^(١) —
(١٩٠٤) Le Montespan (١٩٠٥) Les trois amoureuses
Le triomphe de la liberté (١٩١٧) Liluli (١٩١٩) ... الخ .

وفي مقالاته عن (مسرح الشعب) نادى رومان رولان بأن يكون المسرح متحرراً من بورجوازيته أى من اقتصاره على رسم ألوان الحياة الدائرة بين الطبقة الوسطى والغنية ومن وجهة نظرها الخاصة . ذلك أن هذه الطبقات لا تكون إلا جزءاً من الأمة ، فاقصر الكاتب المسرحيين عليها في موضوعاتهم يحرم المسرح من أن يكون معبراً عن روح الشعب الحقيقية وآماله التي لا تلبسها

(١) القصة الأولى والثانية والرابعة تدخل تحت عنوان رئيسي واحد هو (مآسى الإيمان) Tragédie de la foi والقصة الثالثة والخامسة والسادسة تدخل تحت عنوان (مسرح الثورة) Théâtre de la révolution

إلا في الطبقات الفقيرة وهي الكثيرة في كل شعب . كذلك هاجم رومان رولان المسرح الكلاسيكي والمسرح الرومانتيكي داعياً إلى أن يكون الفن المسرحي صدى لتفكير العصر الذي نعيش فيه ، وأن يكون ممهدا الطريق لمجتمع جديد . وبرغم أن رومان رولان بقى حتى الحرب العالمية الأولى لا يعلن فكرته السياسية المحددة فإن كل كتبه كانت تفيض بتمجيد الحرية والأحرار وبنزعة إنسانية عظمى . ولقد كان هذا المجتمع الجديد الذي يرمى إلى التمهيد له هو ذلك الذي تحيا فيه الطبقات الفقيرة المهضومة حياة حرة كريمة وتجد بين أحضانه أكبر قدر من الحنان والتقدير .

على أننا ونحن في انتظار ذلك اليوم المطوى في ثنايا الغيب يرى رومان رولان وجوب أن نعد الشعب لتقبل ذلك المجتمع الجديد ، وما ذلك إلا بأن نهيم الفرد لبلاوغ أعظم درجة مستطاعة من الكمال الإنساني حتى يقابل كل تطور جديد بقلب مفتوح وصبر جميل . ولذا نرى رومان رولان (أخلاقياً) يطالب الفرد بأن يكون قوى الخلق ، عظيم النفس ، حنون القلب ، محباً لكل الناس ، راغباً في معرفة كل شيء ، مستعذباً بالتضحية في سبيل الفكرة السامية . فهذا وحده نستطيع أن نقبل راضين مجتمعاً جديداً مترفعاً عن الدنيا ، نازها لضروب الرياء الذليل ، بعيداً كل البعد عن الأنانية الحيوانية . ولهذا أيضاً كان رومان رولان يهيم بحياة الأبطال الذين يرى فيهم مثلاً أعلى لما يجب أن يكون عليه الفرد

من الفضائل . فنراه يكتب — كما ذكرنا — قصتيه المسرحيتين
(سان لويس) و (دانتون) ، ثم نراه يكتب بعد ذلك ثلاث تراجم
بعضها عن (حياة الرجال المشهورين) Vies des hommes illustres ،
أولاهما عن (حياة بيتهوفن) Vie de Beethoven (١٩٠٣) والثانية
عن (حياة ميشيل آنج) Vie de Michel Ange (١٩٠٦) والثالثة
عن (حياة تولستوى) Vie de Tolstoi (١٩١٣) ، ثم أخيراً
كتابه الذائع الصيت عن (مهاتما غاندى) Mahatma Ghandi
(١٩٢٦) .

ويرى رومان رولان أننا فى عصرنا الحاضر أحوج ما نكون
إلى دراسة أولئك الأبطال (لأن أوروبا الآن يغشاها جو خانق
مفعم بالرديلة ، إذ طغت المادية الوضيعة على الفكر ... إن العالم
يختنق ، فلنفتح النوافذ حتى يدخل الهواء الطلق العليل . فلنستنشق
نفثات الأبطال)^(١) . وما هؤلاء الأبطال إلا أولئك الذين نرى
فيهم — كما يقول رومان رولان — (روح البطولة ، ورجاحة
العقل ، والابتسامة الدائمة ، وشهوة النور والمعرفة . تلك الصفات
التي نراها فى فرنسا فى رابليه ومولير وديدرو ، وبين الموسيقيين
نستطيع أن نقول بيريوز وبيزيه لأنه لا يوجد خير منهما)
على أن رولان يرى فى بيتهوفن وميشيل آنج وتولستوى

(١) راجع مقدمة كتاب (حياة بيتهوفن)

عبقرية لم يحدّها في أبناء وطنه . فيرى في بيتهوقن الشخص (الذى
منه تنتقل عدوى الشجاعة الخارقة ، والإحساس بالسعادة فى
الكفاح ، وتغلب الضمير الذى يشعر فى نفسه بأنه إله) ، ويرى
فى تولستوى (ذلك النور الذى انطفأ والذى كان لأبناء جيلين
أظهر نور أضاء شبابهم) وهو يحد فيه أيضاً (ذلك الصديق الحقيقى
الوحيد بين كل رجال الفن المعاصر) . ولسنا فى حاجة إلى تأكيد
الصلة الوثيقة بين تولستوى ورومان رولان ، إذ أن تولستوى
هو من أوائل الكتّاب المحدثين الذين طالبوا بأن تكون رسالة
الفنان مثالية ، وهذا هو أظهر ما يميز رومان رولان ودعوته .
ونحن إذا نظرنا الآن إلى هؤلاء الثلاثة الذين يمجدهم رومان
رولان رأينا أن أولهم ألماني ، والثاني إيطالي ، والثالث روسي .
فسكانه لم يحد بين أبناء وطنه مثله الإنسانى الأعلى . لذا كان ذلك
داعياً إلى أن يحد رومان رولان عدداً ليس بالقليل من النقاد
الفرنسيين يتهمونه بانتقاص العبقرية الفرنسية والطعن فيها . والواقع
أن رومان رولان كان دائم اللوم لأبناء وطنه على (شدة تأثرهم
بالأوهام الخداعة التى تصوغها الخطب الرنانة) ، وكان يصرح دائماً
(بكرهه لذلك النوع الجبان من المثل الأعلى الذى يدير العيون عن
بؤس الحياة وضعف النفس . إن البطولة الكاذبة جبن ونذالة .
فليس هناك إلا نوع واحد من البطولة ، تلك هى التى ترى الحياة
كما هى وتحبها) .

ولقد أراد رومان رولان أن يرسم صورة خيالية تتجمع فيها فضائل أبطاله السابقين فكتب قصة (جان كريستوف) Jean Christophe (١٩٠٤ - ١٩١٢) ، وبطلها ، وهو جان كريستوف موسيقي ألماني (تغلغل في نفسه بيهوثن العظيمة فصليت أعضائه ونفسه وبدت كأنها جعلت حجمها ضخماً هائلاً . لقد كان يتجه نحو العالم . كان كجبل شامخ تدوى بين أرجائه العواصف ، عواصف الحرارة والحماسة ، عواصف الهمم الدفين ، آه ! ياله من هم ! على أن ذلك لم يؤثر بشيء ! كان يحس بنفسه وافر القوة ! . . . والعذاب ! العذاب أيضاً ! . . . آه ! ما أجمل أن يكون المرء قوياً . ما أجمل أن يتعذب المرء عندما يكون قوياً . . .) .

وقصة (جان كريستوف) تقع في عشرة أجزاء ، وهي أقرب إلى أن تكون ترجمة لشخصية خيالية من أن تكون قصة ، وهي — كسائر أعمال رولان — تفيض بالضمير الحي والحب النبيل والموسيقى الرائعة .

وليس إعجاب رومان رولان بيهوثن قاصر أعلى كونه نموذجاً للبطل الذي ينشده بما دفعه لأن يرسم شخصية جان كريستوف مماثلة له ، بل أيضاً لأنه (أمام الموسيقيين) و (الموسيقي الآلهية) عند رولان كأبطاله بمثابة (الضوء الذي ينير حياته) . ولقد رأينا كيف كان له الفضل في إدخال مادة (تاريخ الموسيقى) في السوربون

حين عين أستاذاً فيها ، كما أنه كتب فضلاً عن دراسته الخالدة عن
بيتهوفن عدة دراسات أخرى في الموسيقى منها (الموسيقيون
القديمان) Musiciens d'autrefois (١٩٠٨) و (الموسيقيون
المعاصرون) Musiciens d'aujourd'hui (١٩٠٨) و (هيندل)
Haendel (١٩١٥) . ذلك أن رومان رولان يرى كمكاتب أخلاقي
أن الموسيقى خير مهذب للنفوس المريضة وأعظم حافز للمواطنين
الخامدة ، كما أن الموسيقى العبقري يستطيع أن يجعل موسيقاه خير
تعبير عن روح العصر وآماله وظروفه الملحوسة .

وفي (النهار الجديد) La nouvelle journée (١٩١٢) ، وهو
آخر جزء من قصة (جان كريستوف) ، كتب رومان رولان يقول
(إن أوروبا الآن توحى للناس كأنها في ليلة حرب) ، كتب ذلك
قبل أن تعلن الحرب العالمية الأولى بعامين . وعندما اندلعت
الشرارة الأولى كان رومان رولان في سويسرا ، فكان بعده عن
وطنه مساعداً له على أن يكون حر الرأي بعيداً عن التأثير بضروب
الدعاية المختلفة التي كان يصيح بها سياسة الدول المتحاربة ، ومنها
فرنسا ، تبرير الحرب وحثاً للناس على خوض غمار القتال (كإنقاذ
المدنية) أو (الحرب من أجل السلام الخالد) ، إلى غير ذلك من
الأقوال التي لم تثبت الحوادث غير بطلانها .

ومنذ التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٩١٤ شرع رومان رولان يكتب سلسلة مقالات في (جريدة جنيف) ، بدأها بخطاب مفتوح إلى الكاتب الألماني هوبتمان ، مستنكراً الوحشية الألمانية التي أحرقت بلدة لوغان البلجيكية وقال (كثير منكم أن يبدو ذلك العنف الذي تعاملون به هذه الأمة الكبيرة النفس — يقصد بلجيكا — التي لا ذنب لها إلا الاستماتة في الدفاع عن استقلالها وعن الحق كما فعلتم أنتم الألمان عام ١٨١٣ . . . احتفظوا بهذه القسوة لنا نحن الفرنسيين أعدامكم الحقيقيين . أما أن تتحمسوا ضد غناياكم ، ضد ذلك الشعب البلجيكي الصغير السيم الحظ ، فيأله من عار !) ثم يقول (ولم تكتفوا بأن تأخذوا البلجيكي الحية بل أعلنتم الحرب على الأموات ، على مجد القرون ، فأمطرتهم مالمين بالقنابل ، وأحرقتهم روبان ، وأصبحت لوغان تلاً من الرماد ، لوغان بكنوزها الفنية وعلمها ، لوغان المدينة المقدسة . . . هل تحاربون الجيوش أم الفكر الإنساني ؟ أقتلوا الرجال لكن احترموا الأعمال الفنية ، أنها تركة الجنس البشري الذي أتم منه والذي نحن جميعاً الأمناء عليه . إنكم حين تحطمونه كما تفعلون الآن تثبتون أنكم غير جديرين بذلك التراث العظيم) (١) .

وفي مقالته الثالثة (فوق المعركة) ، التي أطلق عنوانها على مجموعة

المقالات حين جمعها فيما بعد في كتاب ، نسمع رومان رولان يوجه اللوم الشديد إلى قادة الرأي العام والرؤساء الدينيين والمفكرين وخطباء المنابر قائلًا (بين أيديكم ثروات حية ، كنوز من البطولة ، فماذا فعلتم بها ؟ لقد وجهتموها إلى الصراع والموت !) . ثم نراه يظهر استنكاره المرير من أن تنتقل شهوة رجال السياسة إلى رجال الفكر ، فتتولد بينهم العداوة (فيصبح أوكن ضد برجسون ، وهويتمان ضد مترلنك ، ورولان ضد هويتمان ، وولز ضد برنارد شو . كما يتغنى كيرلنج ودانونزيو ودورينييه وباريس ومترلنك بأغاني الحرب والقتال ، بينما يطلب الفيلسوف الشيخ فنديت الذي بلغ من العمر الثانية والثمانين ، بصوته المحطم ، " من طلبة جامعة ليزج الاشتراك في « الحرب المقدسة ») .

وفي هذا المقال أيضاً صرح رولان (أن الباعث الحقيقي على الحرب ، العدو الألد ، ليس خارج حدود الوطن بل هو رابض داخل كل أمة . أنه ذلك الاضطبوط الذي يسمى التوسع الاستعماري ، تلك الإرادة في الكبرياء والتسيطر التي تريد أن تمتص كل شيء ، فإما الخضوع لها وإما الهدم ، تلك الإرادة التي لا تحتل مطلقاً أي عظمة ونمو خارج دائرتها) .

وبعد أسبوع من معركة المارن أعلن رومان رولان فكرته العالمية (ووجوب إقامة المدينة الواسعة الممتدة الأطراف التي

تزال منها المظالم وأحقاد الأمم وتجتمع فيها النفوس المتأخية الحرة
في العالم أجمع) .

لقد رأينا كيف أن رولان في مقالاته كان متجرداً من كل
خضوع للوطنية العمياء أو التأثر بتيار الحماسة الذي كان يحرف أمته
كما كان يحرف كل الأمم المتحاربة . ولذا لم يتردد — كما رأينا —
في السخرية من رجال الفسك والدين ، لأنهم خانوا مبادئهم النبيلة
في الوقت الذي كان يمكنهم فيه تأدية أكبر جانب من مهمتهم في
الحياة ، كما أنه لم يتردد في إظهار ألمه من تردى العلم في حمأة الأغراض
حين يدعى الأستاذ بيريه مدير المتحف وعضو أكاديمية العلوم
في باريس أن البروسيين لا ينتمون إلى الجنس الآري . كذلك كان
من الأسباب التي زادت عدد مهاجميه احتفاظه ، بعد أن أعلنت
الحرب ، بصداقة من كان يعرفهم من الكتاب الألمان (إذ ليس
حبي لوطني — كما قال — معناه أن أكره أناساً مخلصين يحبونهم
كذلك أوطانهم) .

كل هذه الأسباب ، إلى جانب التهم التي وجهت إليه قبل الحرب
عن طعنه في العبقرية الفرنسية ، جعلت عدداً من جرائد بلاده
ينشر مقتطفات محرفة من مقالاته ليثير عليه الرأي العام . ولقد
استطاعت هذه الصحافة المغرضة بلوغ ما أرادت إلى حد كبير

فكان جواب رولان على هذا أن جمع مقالاته في كتاب مستقل في سبتمبر عام ١٩١٥ ، حتى يتطلع الشعب الفرنسي بنفسه على حقيقة ما كتب ليعرف مقدار اتهامات أعدائه من الحق والضلال . وقد قال في مقدمة كتابه ما يأتي (إذا باغتن الحرب شعباً عظيماً فليس عليه فقط أن يدافع عن حدوده ، بل أمامه عقله أيضاً يجب أن يحميه من الخرافات والخروج عن العدل ومن السخافات ، تلك الأمور التي تطلقها من عقولها المصيبة العظمى . لكل شخص مهمته ، فكما أن على الجيوش أن تحافظ على أرض الوطن ، كذلك على رجال الفكر الدفاع عن الفكر ، فإذا سخروه لخدمة شهوات الآخرين فقد يستطيعون أن يكونوا آلات نافعة ، ولكنهم يخاطرون بخيانة العقل الذي ليس هو أقل جزء من تراث شعبهم) ثم يقول في النهاية (لقد ظلمت عاماً بأكمله غنياً بالأعداء ، والآن أقول لهم أنهم يستطيعون أن يحقدوا على ولكنهم لن يستطيعوا أن يعلموني أن أكون حقوداً . . إن مهمتي أن أقول ما أعتقدُه عدلاً وإنسانياً) .

والواقع أن التهم التي أسندت إلى مقالات رومان رولان في (جريدة جنيف) لا أساس لها من الصدق ، إذ خلقتها من جهة عداوة بعض الأفراد والجرائد من دعاة الحرب والوطنية الزائفة التي تخفي وراءها المصالح الخاصة ومن جهة أخرى الرقابة على المطبوعات

أبان الحرب التي كانت حين تحذف من مقالاته كثير آ من الفقرات التي ترى فيها تطرفا لا يحوز نشره ، تترك بذلك المجال لأعدائه لتأويل الجزء الضئيل الباقي تأويلا سيئاً .

وعلى كل حال فقد كان هذا الصراع الهائل بين رجل وأمة داعياً لأن تتسع شهرة رومان رولان بعد الحرب ، وخصوصاً وقد حصل عام ١٩١٦ على جائزة نوبل للآداب^(١) ، وكانت شهرته خارج فرنسا أوسع منها داخل فرنسا نفسها ، وقد قوبلت كتيبه التي ظهرت بعد الحرب بشغف زائد وإقبال عظيم ، فطبعتم عشرات الطباعات ، ومن هذه الكتب Aux peuples assassinés (١٩١٧) — Colas Breugnot الذي طبع عام ١٩١٤ ولم ينشر إلا عام ١٩١٩ — Clérambault, histoire d'une conscience libre — (١٩٢٠) pendant la guerre — Les précurseurs (١٩٢٤) — L'âme enchantée — (١٩٢٥) Le jeu de l'amour et de la mort — (١٩٢٦ — ١٩٢٧) Mahatma Gandhi — (١٩٢٦) Les Léonides — (١٩٢٨) — Essai sur la mystique de l'Inde vivante (١٩٣٠) . إلخ . ولقد ظل رومان رولان يعيش في سويسرا متخذاً إياها وطناً ثانياً له ، محافظاً كل المحافظة على تفكيره وآرائه التي أثارت عليه الحملات غير عابئة بها ، مؤمناً بذلك بالإحساس الذي دفعه إلى أن

(١) في عام ١٩١٣ كان قد حصل على جائزة الأدب الفرنسية الكبرى .

يقول أثناء الحرب في إحدى مقالاته (خطاب إلى متهمي)
Lettre à ceux qui m'accusent (إن الوقت الذي يخصصه للرد على
خصم ما إنما يعتبر كسرقة من أولئك التعساء ، أولئك السجناء ،
من تلك الأسر التي تسعى ونحن في جنيف أن نمد لها أيدينا) .

ويرى الناقد (رونييه لالو) أن هذه الصلابة الشديدة التي نجدها
عند رومان رولان في التمسك برأيه والاحتفاظ بنقاء ضميره كرجل
مثالي قد آذته إلى حد ما كفنان إذ أفقدت قصصه كثيرآ من الليونة
والطراوة . على أن هذا الإخلاص لعقيدته بين عواصف الافتراء
الكاذب ، وذلك الاحتمال الباسم للاضطهاد الذي بعثته النفوس
الصغيرة ، وتلك السعادة في العذاب التي انعكست عليه من أبطاله
بيتهوفن وتولستوى وغاندى ، قد جعلت جميعا منه أحداً عاظم قادة
الفكر الأوروبي الحديث .

لقد صبر رومان رولان وتحمل كثيراً من طعنات أعدائه
وكأن الزمن قد أراد أن يثبت برأيه من محاباة الفكر الألماني على
حساب الفكر الفرنسي وذلك بظهور النازية في ألمانيا . إذ سرعان
ما امتشق رومان رولان الحسام لمقاومتها من المقاومة ، معلنا عداوته
لكل نظام أوتوقراطي يمتن كرامة الشعوب ، مبينا أن الفكر
الألماني الذي مجده ولا يزال يمجده إنما هو ذلك الفكر الحر المنادي
بالمساواة بين الأمم ، الداعي إلى خير البشرية ، وهو نفس الفكر

الذى شردت النازية رجاله من أبناء ألمانيا نفسها بين أرجاء العالم
أمثال توماس مان وأنا زيجرس وإرنست تoller وغيرهم ، لأنهم أبوا
أن تحكم بلادهم حكما استبداديا لاحرية فيه . ولقد كان جزاء رومان
رولان نفسه على عالمية تفكيره ونشاطه المتواصل قبل إعلان
الحرب الأخيرة في محاربة الفاشية وجرائمها ، أن ألقى الهتلريون
القبض عليه بمجردهم لغزوهم لفرنسا ، ثم أرسلوه إلى معسكرات الاعتقال
في ألمانيا حيث زج به في شيخوخته بين جدرانها المظلمة ، مما عجّل
بموته بضعة أسابيع بعد تحرير فرنسا بعد أن سجل اسمه بحروف
من نور في صفوف قادة الفكر الحديث ، المدافعين عن السلام ،
المحبين لخير الإنسانية وسعادتها .